

## البعد التدميري في حكاية الأسد والغواص قراءة تأويلية

د. خيرية عمر التائب

قسم اللغة العربية - كلية التربية - جامعة مصراتة

ظهرت السردية القصصية على لسان العجماوات؛ بوصفها قولاً حكاياً يرقى إلى مستوى الأدب الفني، يهدف إلى طرح أنماط الحياة الإنسانية في أنواعها وأشكالها المختلفة، غرس شجرتها في الأرض الغريبة الأدبية عبد الله بن المقفع في ترجمته لكتاب كليلة ودمنة وامتداد فروعها مثمرة في عدد القصص تدور حول هذا الفلك منها حكاية (الأسد والغواص).

## 1- مؤلف الحكاية :

مؤلف الحكاية مجهول، ولا يوجد في المخططات الثلاث<sup>(1)</sup> التي ذكرها د. ذوقان قرقوط ما يشير إليه ولا إلى زمنه إلا عبارة وكان تمامها في شهر رمضان المضفر بالخير، سنة خمسمائة وثلاثين<sup>(2)</sup> في النسخة الأم المنسوخ عنها النسخة الهندية. واستفاد د. ذوقان من هذه العبارة أن زمن كتابتها كان نهاية القرن الخامس الهجري، بعد دخول السلاجقة بغداد<sup>(3)</sup>.

## 2- مجرى الحكاية:

تقوم الحكاية على البناء التوالدي للسرد، تشكل من حكاية إطار بطلها الأسد والغواص تتولد عنها حكايات ضمنية ترويه شخصيات الحكاية الإطار. وتدور أحداث الحكاية الإطار في غابة غير محددة المعالم والزمن، ويصنع هذه الأحداث شخصيات أخرجها المؤلف من العالم الإنساني إلى عالم الحيوان، وهو العالم الأثير لدى مجموعة من المؤلفات أرسى دعائمه ابن المقفع في ترجمته ل(كليلة ودمنة). وتجري أحداثه:

(1) ذكر د. ذوقان أنما المخطوطات الثلاث واحدة في المكتبة البلدية بالإسكندرية، والثانية في كتب المصرية، والثالثة في بانكوب الهند، ينظر: مجهول، الأسد والغواص حكاية رمزية عربية من القرن الخامس، اعتنى به رضوان السيد، دار الطليعة والنشر بيروت، ط1، 1978، ص8.

(2) المرجع نفسه، ص9.

(3) المرجع نفسه، ص910.

- أ- أن أسداً ترأس وحوشاً وصف بينها بعدله واجتهاده في رئاسة مملكته وإدارتها.
- ب- دخل جاموس ضاحية المملكة وسبب ضرراً لوحوشها حتى شرّد الوحوش عن مواطنهم وطردهم عن مواضعهم<sup>(1)</sup> فسبب ذلك أرقاً وضيقاً للأسد.
- ج- وكان من جملة عسكر الملك (ابن أوى يسمى الغواص) يتمتع بعقل وعلم ورأي وأدب مائل إلى التأمل والعزلة والقراءة.
- د- أراد (ابن أوى) هذا معاونة الملك بالنصيحة والتقرب إليه لصالح الرعية.
- هـ- وبعد استشارة صديقه الذي نصحه بعدم القرب من دائرة الملك، أصرّ الغواص على اقتحام هذا البحر تلبية لواجبه الديني.
- و- ولج الغواص بحر الملك بعد قضائه ب(الحيلة) على الجاموس، مما قربه من الأسد، وزاد في قربه-بفضل ذكائه- مساعدة الأسد في إيقاف خطر النمر الذي زعمه ناحية من المملكة فأراد التفرد بها.
- ز- تأمر على الغواص مجموعة من حاشية الملك بعد حسد أصحابهم إلى أن أوصلوه السجن.
- ح- اكتشف الأسد المؤامرة وأخرج الغواص من سجنه ثم تركه الأخير وانصرف إلى العبادة.
- تقف الحكاية على مرتكز واحد تدور حوله أحداثها هو مرتكز (السلطة) تصور فيه مجموعة من الشرائح السلطاوية بإيديولوجياتها المختلفة المتصادمة والمتقاربة. إن هذا المدخل الارتكازي المحوري تتكثف وتلتف حوله مجموعة من الأبعاد المبطنة منها البعد (التدميري)، يظهر في قراءة مجموعة من العناصر المكونة للحكاية منها:

#### أولاً الشخصية:

إن الشخصيات المقدمة من قبل الراوي مستقاة من واقع تاريخي سياسي، لا ينأ عن واقع تجريبي شمولي، يظهر في أفعالها وأقوالها، وإن قنعها بقناع حيواني غير أنه شفاف. ومن خلال هذه الشخصيات يرمي إلى تقديم رؤية للعالم الذي يعيشه كما يراه وفق موقفه منه، ومحاولة خلق عالم جديد يتفق مع مستوى الوعي الديني لديه.

انقسمت شخصيات الحكاية إلى:

(1) الأسد والغواص، ص43.

**1) الشخصيات الرئيسية (الأسد - الغواص):**

وفي تقديم شخصية الأسد تتكشف معظم الملامح (المعنوية) التي ترسم الملك النموذج فهو حسن الطريقة في مملكته (...). فكان الذي سهلها عليه شدة محبته للرياسة وشغفه بإحياء السنة وتنفيذ أحكام الشريعة (...). فكانوا يستريحون تبعه وينامون في سهرة ويتفرغون لأشغالهم لشدة اشتغاله بمصالحهم<sup>(1)</sup>. ولا يقل الغواص مثالية عن الأسد وإن اتخذت شخصيته منحى مغايراً، فإن كان الأسد شخصية فاعلة في مملكته مسيطرة متقدمة، فإن الغواص وإن ظهر في بداية القصة مستقلاً عن المملكة معتزلاً كما يصفه الراوي بأن له رأياً وأدباً إلا أنه كان محباً للدعة راغباً في الخمول مشغولاً بطلب العلم (...). يأنس بالوحدة كما يأنس غيره بالمجالسة<sup>(2)</sup>. فانه سرعان ما يتحول إلى أداة فاعلة محركاً للوسط الذي اقتحمه، لما يتمتع به من نفاذ بصيرة كانت سبباً في تسميته بالغواص. سأله الأسد: لما سميت غواصاً؟ قال: لغوصي على المعاني الدقيقة واستخراجي أسرار العلوم الخفية<sup>(3)</sup>.

**2-الشخصيات الثانوية:**

- أ- شخصيات فاعلة أثرت في تنامي الحدث (الجاموس - الحاشية - النمر)  
ب- شخصيات غير مؤثرة في تنامي الحدث (الصديق - اللوام - زوجة الأسد)

**3-الشخصيات الهامشية :**

(التاجران - غلام التاجر - السجناء)

إن أول تنامي للحدث أحدثه ظهور شخصية (الجاموس). فلماذا اختار الراوي الجاموس تحديداً؟ وما الذي تمتلكه هذه الشخصية لتقابل الأسد؟  
إن هذه الشخصية تحمل قدراً عالياً من المفارقة في تركيبها فهي حيوان متمرد يتمتع بقوة جسمية تدميرية رهيبية، وفي الوقت ذاته حيوان عشبي طعام للوحوش.

(1) الأسد والغواص ص43.

(2) المرجع نفسه ص34.

(3) المرجع نفسه ص70.

تظهر قوته التدميرية في مشهده الذي قدمه به الراوي في قوله: وإن جاموساً تغرب في غيضة في جواره فأكل منه وسمن وأشر وبطر وعظمت خلقتة واشتدت قوته حتى شردّ الوحوش عن مواطنهم وطردهم عن مواضعهم<sup>(1)</sup>

ويمكن إدراك هذه المفارقة إذا ما أسقطت هذه الشخصية على دويلات ظهرت في زمن الراوي أو الزمن الحاضر (ضعيفة في بنائها بوصفها دولة، شديدة التأثير والتدمير)، وزاد من قوة التدمير الذي أحدثه الجاموس استعمال الراوي للفعل الماضي (أكل - سمن - أشر - بطر - عظمت - اشتدت - شردّ - طردهم) الدال على التمكن.

وربما يدعم هذه الرؤية ما مورس على الجاموس (في مشهد الانتصار) من قتل بطيء متشفي موغل في الوحشية: فقتلوه حتى أثنخونه جراحاً وانفلت منهم ودخل أجمة فيها ماء ودغل ووحل امتنع بما عليهم وخلا مكانه عنهم وسقط وليس به حراك ولا نفضة وألقى بيديه ورجليه (...). فأنفذ الأسد بعض جنوده فوجدوا الجاموس على آخر نفسه فبقروا بطنه وقطعوا أوداجه وجروه إلى الأسد فأكل منه وفرّق على أصحابه<sup>(2)</sup>

وقد جانب الراوي رسم بعض ملامح شخصيات الحكاية كشخصية الصديق وإن كانت شخصية لم تسهم في حركة الحدث وتناميه غير أن حضورها الكمي بلجوء الغواص الدائم لها من جهة، وتقمصها دور الراوي والمروي له في ثنايا الحكاية جعل منه شخصية حاضرة مبهمة المعالم، لكن هذا الإبهام أضفى عليها صفة الشمولية في كونها (الرأي الآخر) أي الرأي المعارض غير الفاعل في كل المجتمعات السياسية.

فهذا الإبهام يمكن أن يقودنا إلى القوة التدميرية الممارسة على الصديق بإلغائه كما في قوله للغواصتشاروري مشاوره الوثائق وتعصيني معصية المتهم<sup>(3)</sup>

ثم تمتك هذه الصورة بصورة أخرى لشخصية تخرج فجأة وكان قد جاءه مع صديقه صديق له آخر كان ناقص النخيزة مدخول السريرة. قد جعل التأنيب حظه من المعونة والتفريع نصيبه من المنفعة يكثر الازدراء ويقل العناء<sup>(1)</sup>.

(1) الأسد والغواص، ص 43

(2) المرجع نفسه، ص 102103.

(3) الأسد والغواص، ص 49.

فبدلاً من تطور الصديق تطوراً إيجابياً يسهم في تفعيل الحدث وتخليص الغواص يتطور تطوراً سلبياً ولا يخرج عن دائرة اللوم، كما يحدث في المجتمع السياسي بعد وقوع الهزيمة يخرج اللوام من كل حذب وصوب.

تمتد ملامح التدمير من خارج الدولة المتمثل في شخصية (الجاموس)، و(الصديق) إلى البناء السياسي الداخلي متجسدة في:

#### أولاً شخصية النمر:

هو الشخصية المولاة من جهة الأسد بلداً من البلدان وظهر له خروج من الطاعة<sup>(2)</sup>. وإن قدم الراوي شخصية النمر خالية من التسمية والتوصيف أو حتى إضفاء بعض الإضاءة عن بلده، وصرف تركيزه على دور الغواص في القضاء عليه، غير أنه يبصرنا بحالة التصدع التي تعيشها الدولة.

#### ثانياً شخصية بطانة الملك:

زاد أنس الأسد به واشتغل عن كثير من أصحابه فحسده قوم من خواصه وأجمعوا على مكيدته<sup>(3)</sup>. إن في كون هذه القوة المتآمرة الموصوفة بـ أ- مجموعة في (قوم).

ب- متحدون في (أجمعوا).

ج- قريبة في (خواصه).

ما يعلي من مستوى تأثيرها في تدمير البناء الداخلي السياسي للدولة. ويبلغ التدمير ذروته في اجتماعهم للإطاحة بالغواص: قال، فجلس أعداء الغواص يتشاورون (...). قال آخر: إن الملوك قد تعاقب وتسخط في أربعة أشياء: إفشاء السر، والقده في الدولة، وإفساد الحرم، واختزال الأموال<sup>(4)</sup>.

فهذه الدعائم الأكبر للدولة فلا يتم بتصدها تدمير العلاقة بين الملك والغواص فحسب بل تؤدي إلى تدمير الدولة وخلق التصدع في أركانها، فهي (قاسمة الظهر).

وعليه فإن من وصل به تفكيره إلى هذا المستوى لا يكون مجرد حاسد مؤقت بل له باع في الحيلة والتآمر، متمرس فيها، لا يثنيه خلقه عن هتك هذه المحظورات.

(1) المرجع نفسه، ص 158.

(2) المرجع نفسه، ص 122.

(3) الأسد والغواص، ص 114115.

(4) المرجع نفسه، ص 115.

وفي قدرة هذه الشخصية عن التخفي والمصانعة وبراعتها في دس السم ما يخولها أن تكون قوة مدمرة، يظهر في قول الراوي: ثم أنهم اجتمعوا عند الملك بعد ذلك وهو لا يعلم ما في ضمائرهم فقال أحدهم إن الغواص له عليك حق خدمة وحرمة وقد كان عندك موثقاً... وهو من أهل الدين والتقى... وإنما صحبتك لما أكرهته على ذلك وإلا فهو مؤثر للعبادة وقد حصل له مال جم في خدمتك وأيامك... فلما سمع الملك ذكر مال جم ازداد تعجبه<sup>(1)</sup>.

كذلك براعتها في الإقناع وإظهار الحجج دلالة على خطورة الأداة المدمرة للدولة، يتضح في مناصحتهم للغواص للاعتراف بجرمه: وأعلم أن جميع ما يعنى به المرء في هذه الدنيا ثلاثة: النفس والجسم والمال، وإنما يراد المال لصلاح الجسم، والجسم لصلاح النفس<sup>(2)</sup>.

وفي اتهام الغواص بخيانة الملك في (حرمه) بعد أن كتبوا كتاباً باسم الغواص يصف فيه وجده بها وطرحوه في مكان حظية الملك ومرقدها<sup>(3)</sup>.

وإن كانت (الواو) تعود على بطانة الملك غير أن هذه العبارة تشير إلى وجود شخصية أخرى لها قدرة هائلة في التدمير، وهم الخدم الذين يستطيعون (وحدهم) الوصول إلى مرقد الملكة.

### ثانياً الحوار:

أ- تخير الراوي أسلوب التناصح والتداعي الممنهج للأفكار أداة لسرد الحكاية، وقد اتسمت هذه الأداة ببعد ديني أطر الحكاية، يطغى فيه الملمح التدميري كقوله: قبحاً للدنيا الغرارة ما أعجب أمرها، يأتي فيها الخوف من جهة الأمن ويرد العطب من طرق السلامة فإن المرء يأكل الغذاء ويشرب الماء والذي يتغذى بهما جسمه وينما عليهما دمه وتقوم بهما حياته وتنشأ بهما طبائعة التي بهما تبقى نفسه وبهيجان بعضهما يكون مماته. فهي أمضى فيه من السيف القاطع والسم القاتل فغذائه الذي هو سبب حياته هو السبب في مماته، فكيف يرجو المرء سلامة في دار يأكله فيها ويشربه<sup>(4)</sup>.

(1) الأسد والغواص، ص140

(2) المرجع نفسه، ص142

(3) المرجع نفسه، ص122

(4) الأسد والغواص، ص145

ب-الانتكاء على توليد قصص تدعم الرأي والحجة، ذات أبعاد سياسية واجتماعية ودينية، وأبطالها شخصيات خيالية في الغالب. ولم تخرج شخصيات هذه الأبعاد من دائرة السحق والتدمير الممارس منها أو عليها. مثال ذلك:

### 1. البعد السياسي (صورة الملك):

يحاول الراوي نمذجة صورة الملك (بطل الحكاية الأم)، لكنه سرعان ما يهدمها باستدعاء صورة الملوك في الحكاية الوليدة فالتدمير والسلطان متلازمان في هذه الحكايات، مثاله: أن بعض ملوك الفرس زاحمه وزيره في مضيق فدعس رجل الملك فأمر الملك بقطع رجل الوزير. ثم ندم فأمر بمداواته، فلما برئ قال: قطعت رجله فلا يجني أبداً. فأمر بقتله. ثم قال: وأهله لا يجونني وقد قتلته فأمر بقتلهم<sup>(1)</sup>.

### 2. البعد الاجتماعي (صورة المرأة):

أخرج الراوي المرأة في صورة سلبية معلناً عن ذلك على لسان الأسد (بطل حكايته): فإن النساء أصل كل بلاء فهي القوة التدميرية القاضية على السمو الأخلاقي، هي: (الخائنة، والعاهرة، والمتآمرة لقطع الود، والغبية، وسيئة الأدب) ومثال الأخيرة: ذكر أن رجلاً كانت له امرأة وكانت سيئة الأدب فجاء يوم من الأيام فوجد المنخل على فراشه فتعلق بالوتد فقالت له امرأته ما هذا؟ فقال إذا كان ذلك الموضع موضع المنخل كان هذا الموضع موضعي أنا<sup>(2)</sup>.

ولم تخرج المرأة عن هذه الدائرة إلا في أربع صور:

الأولى: زوجة الأسد (في الحكاية الأم) وإن نأت عن الصورة السالفة غير أنها جاءت سلبية تماماً جامدة مسلوقة الدور على الرغم من استهدافها من جهة الحاشية، ومما زاد في تهميشها ذكرها ب(فلانة): وفلانة حظية الملك وأحب الناس عنده<sup>(3)</sup>.

الثانية: المغنية التائبة:

وإن ظهرت في صورة إيجابية غير أنها تحمل في طياتها السلبية لمجيئها في معرض لوم وتقريع.

(1) المرجع نفسه، ص 193-192.

(2) الأسد والغواص، ص 99.

(3) المرجع نفسه، ص 120.

الثالثة: العجوز الأعرابية:

استطاعت بفظنتها تمكين الرجال الذين معها من القبض على اللص<sup>(1)</sup>.

الرابعة: يظهرها الراوي بكامل نضجها العقلي والأدبي والديني وقد سألها رجل: من أين تعيشون؟ فقالت: لو أنا لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش<sup>(2)</sup>..

ثالثاً الزمن في الحكاية:

الرواية فعل كلامي لاحق للحكاية زمنياً، ويترب على هذا ظهور مستويين زمنيين يؤطران مستوى الرواية والحكاية، أولهما أبعد في الوقوع وهو زمن وقوع الفعل الحكائي، وثانيهما أقرب في الوقوع وهو زمن حصول الفعل الكلامي<sup>(3)</sup>.

وقد سرد الراوي الفعل الكلامي للحكاية (الأم) في إطار زمن متوالي كسر في ثلاثة مشاهد

فقط:

أولهما الجاموس، وثانيهما مشهد النمر، وثالثها في تقديم شخصية اللوام.

وقد نمت أحداث الحكاية في زمن خال من التحديد ولم يذكر الراوي تحديداً زمنياً في الحكاية الأم إلا في مشهد انتصار الغواص على الجاموس: ثم أن الغواص صبر بعد الظفر ثلاثة أيام<sup>(4)</sup> وذكر الزمن مبهما في موضعين:

فقال لصديقه ذات يوم<sup>(5)</sup>، و فجلس أعداء الغواص ذات يوم<sup>(6)</sup>. فهو زمن ممتد لا حدود له غير مقرون بغيره، مقطوع عن سابقه ولاحقه.

كذلك الأمر في الحكايات الوليدة فلم يذكر فيها الزمن إلا في ثلاث حكايات:

(1) المرجع نفسه، ص5253.

(2) المرجع نفسه، ص180.

(3) إبراهيم، عبد الله، السردية العربية، بحث في السردية للموروث العربي الحكائي، ط1، 1992، ص125.

(4) الأسد والغواص، ص104.

(5) المرجع نفسه، ص44.

(6) المرجع نفسه، ص115.



الأولى في حكاية كسرى وشهر براز: فلما حصل جميع ذلك في البحر جاءت ريح في الليل قطعت المراكب<sup>(1)</sup>، والثانية حكاية صاحب الدين: فلما غدا من غدٍ إلى دار القاضي<sup>(2)</sup> والثالثة حكاية خبطة الحجاج: (فصبر) حتى جرت الليل<sup>(3)</sup>.

#### رابعا المكان في الحكاية:

غاب المكان كما غاب الزمان في الحكاية (الأم) فترك المكان مفتوحاً كما في قوله: ذكروا أن أسداً كان ملكاً للوحوش في بعض المواضع<sup>(4)</sup> وربما تعمد تجاهله واكتفى بقوله في مشهد النمر وسأله أن أن يكتب للملك في أمرك كتاباً يسأل لك في الناحية الفلانية تتقلدها<sup>(5)</sup>.

وكثر ذكر المكان في الحكاية الوليدة مقارنة بزمانها. ويتجلى ملمح التدمير في الزمان والمكان في كونهما غير محددتين فتخرج الحكاية عن حيزهما لإضفاء روح الشمولية والامتداد للحدث.

ربما يكون الواقع التدميري في القصة هو السلسلة التي ربطت علاقة الشخصيات والأحداث بعضها ببعض، وربما غيابه هو الذي دفع ليلى سعد الدين للحكم على الشخصيات بأنها هي ذاتها التي وجدناها عند ابن المقفع، ولكن المؤلف المجهول لم يحسن سبك أحداث قصته، فهو حيناً يصف الأسد بالقوة والهيبة والاحترام، وحيناً آخر يجعله جباناً أمام الثور، فهاتان الشخصيتان أراد لهما مؤلفهما أن تكونا مخالفتين لشخصيتي الأسد والثور في كليلة ودمنة. وفي الوقت نفسه، ومع هيئة الأسد هنا نجد الغواص يجترئ على الأسد، ويرى فيه الجبن الذي لم نعهده فيه. الشخصيات هنا ركبت تركيباً يتنافى مع نفسياتها<sup>(6)</sup>.

فال محور التدميري الذي تلتف حوله الحكاية أفضى إلى الكشف عن رسالتين لعل الراوي أراد إيصالهما هما:

1. الثورة على القولية والتنميط السياسي في صورة الحاكم النموذجي (الحازم الراشد) ومحاوله تفتيته من خلال مجموعة من المشاهد تجادل فيها السالب والموجب فظهر هذا التجادل في:

(1) الأسد والغواص، ص 79.

(2) المرجع نفسه، ص 134.

(3) المرجع نفسه، ص 135.

(4) المرجع نفسه، ص 41.

(5) المرجع نفسه، ص 123.

(6) كليلة ودمنة في الأدب العربي، دراسة مقارنة، سعد الدين، ليلى حسن، مكتبة الرسالة عمان، 1980، (دط)، ص 340.

- أ- عجزه عن مواجهة الجاموس (سالبة).  
 ب- عجزه عن استيعاب النمر (سالبة).  
 ج- قدرته على القضاء على المؤامرة (موجبة).  
 د- تقبل الرأي الآخر (موجبة).  
 2. الهزيمة :

تمثلت في انسحاب الغواص محملاً بقدر عال من التدمير :

- أ- تدمير الذات (خرج مهزوماً).  
 ب- تدمير الهدف (الفشل في إصلاح الدولة).  
 ج- تدمير الدولة (انفصال العلم عن السياسة).

#### ثبت المراجع:

- 1- إبراهيم عبد الله، السردية العربية بحث موروث في الموروث الحكائي العربي، ط1، 1992.  
 2- سعد الدين، ليلى حسن، كليلة ودمنة في الأدب العربي دراسة مقارنة، مكتبة الرسالة، عمان الأردن، 1980.  
 3- مجهول، الأسد والغواص حكاية رمزية عربية من القرن الخامس الهجري، اعتناء رضوان السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط1، 1978.